خطبة صلاة الجمعة 17/5/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشعّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بين دمشق وقُسَنْطِينة – إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:62-63].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13].

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» [رواه البخاري ومسلم].

عنوان خطبة اليوم:

(بين دمشق وقُسَنْطِينة – ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ﴾)

في السَّاعة الثَّامنة مساءً ارتفعت عجلات الطَّائرة عن مَدْرَج مطار دمشق، لتخترق عُباب السَّماء متجهة غرباً، نحو بلدٍ ما وطئته قدمي قبل اليوم، ولا خبرته نفسي، إلَّا ما قرأت عنه ودرست.

بَدَت دمشق مِن عَلٍ واللَّيل يحاول أن يرخي سُدولَه عليها ليحجبها عن البسيطة، بدت بمصابيحها المتَّقدة وأضواء أحيائها وشوارعها وبيوتها، رافضةً الاختفاء، عصيَّةً على الإقصاء، فَكَسَتْ ظلمته بشموعٍ من أنوارها، ووشت سواده بلآلئ من أضوائها.

وكأنَّها تقول: إنَّ ليلاً لا يدوم، وإنَّ ظلاماً لا يستمر، وإنَّ مع العسر يسراً.

بعد أربع ساعاتٍ حطَّت بنا الطَّائرة في مدينة الجزائر العاصمة، لتنقلنا مركبةٌ مريحةٌ في أربع ساعاتٍ أُخرى إلى ولاية قُسَنْطِينة، كنَّا نمرُّ في طريقنا ببحرٍ من المساحات الخضراء، تقطعه بين الحين والآخر قطعٌ متجاوراتٌ وغيرُ متجاوراتٍ، من الأزهار ذات اللَّون الأصفر والأحمر والبنفسجي.

قُسَنْطِينة: بضمِّ أوَّله وفتح ثانيه، مدينة تبعد 245 كم عن الحدود الشَّرقية الجزائرية التَّونسية، و430 كم عن الجزائر العاصمة غرباً.

اشتُهرت باسم مدينة الجسور، ويُطْلِق عليها الشُّعراء اسمَ: (مدينة الهوى والهواء)، وتُعرف باسم: (مدينةِ العلم والثَّقافة)، ويصفها المؤرخون أيضاً بـ: (المملكة) لكثرة سكَّانها وأموالها ومواردها واتِّساعها الجغرافي.

وكلُّ هذا الَّذي قيل عنها رأيناه وعايشناه، ففي قُسَنْطِينة العديد من الجسور، منها المعلَّق وغير المعلَّق، بعضها تمرُّ عليه الحافلات، وبعضها لم يؤذن إلَّا للبشر بالمرور عليه.

وهي مدينة الهواء لكثرة اخضرارها ووفرة أشجارها، حتَّى إنَّك لتخال إنَّك تستنشق O3 بدل O2.

وهي مدينة الهوى والحبِّ، رأينا من طيبة قلوب سكانها وصفاء نفوسهم وكرم خصالهم الكثير، وعجيبٌ أمر الحبِّ كيف يُسرع الاستقرار في القلب، إن كان الرَّابط في الله تعالى.

خرجتُ من الشَّام أسأل نفسي: ماذا تنوي في سفرك هذا؟

فذكرتُ حديثين للنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، أوَّلهما: قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: **«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»** [رواه الترمذي]، فنويت تبليغ العلم وتعلُّمَه ومدارستَه.

وثانيهما: **«أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا، قَالَ: لاَ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»** [رواه مسلم]، فاستحضرت هذه النِّية.

وجدنا هناك إخوةً لم يجمعنا معهم إلَّا دين الإسلام ولغة العرب: قرآنهم قرآننا، ونبيُّهم نبيُّنا، ولغتهم لغتنا، قارب تعداد سكان الجزائر السبع والثلاثين مليوناً، وتبلغ نسبة المسلمين فيهم 99.9%.

كثيرٌ منهم يحفظون القرآن الكريم، لغتهم العربية ولهجتهم الأمازيغية، وكثيرٌ منهم يتكلَّم الفرنسية ومن بعدها الإنكليزية، وإن كان بعضهم يخلط في كلامه بين العربية والفرنسية، فلا هو يُعرِب فيفهمه العرب ولا هو يفرنس فيفهمه الفرنسيون.

كنَّا نقرأ في عيون الأهالي حبَّهم للشَّام وأهل الشَّام، حبَّهم للعلم والعلماء، أخبرونا أنَّه ما من خطيب جمعةٍ فيهم إلَّا وهو يدعو في كلِّ يوم جمعةٍ للشَّام أن يعجل الله لها الفرج، ولَمَا علونا المنابر في تلك المدينة العامرة، ودعونا في نهاية الخُطب والدُّروس، وكان في دعائنا سؤالُ الله تعالى أن يرفع الضِّيق والكرب عن الشَّام وأهلها، كان المسجد يهتز بِهَدِيْرِ تأمين المصلِّين ونَشِيْجِ دُموعهم.

هناك ازددت يقيناً -أيُّها الإخوة- أنَّ الفرج قادمٌ وأنَّ القادم خيرٌ، لأنَّ الله تعالى لا يخيِّب عباده ومحالٌ أن يرُدَّ هذه الدَّعوات.

استوقفني مرةً شيخٌ طاعنٌ في أحد المساجد التي ألقيت فيها الدُّروس؛ ليصافحني ويعانقني ويقول: نحن لن نهنأ حتى تهنأ الشَّام بالأمان، ولن نرتاح حتى يرتاح أهل الشَّام، لأنَّ الشَّام قلبنا ولأنَّ قلبنا في الشَّام، ثمَّ بكى وأبكاني.

إنه الحب في الله الذي استقبلنا فيه أهل قُسَنْطِينة وبه ودَّعونا.

لَمَّا انتهت أيَّام الدَّورة العلميَّة للدُّعاة والأئمَّة والمرشدات، ولَمَّا انتهت محاضرات الدَّورة التَّأهيليَّة للحياة الزَّوجيَّة، ولَمَّا كان يوم توزيع الشَّهادات والوداع، رأيت القلوب خفَّاقةً والدُّموع رَقْرَاقَةً، وعجبت من هذا الحبِّ الَّذي ملأ القلوب، يومها قلتُ للحاضرين:

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَأَنْ تَبْغُضَ فِي اللهِ**» [رواه البيهقي].

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**» [رواه البخاري].

وفي حديث السَّبعة تحت ظِلِّ العرش: «**..وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ..**» [رواه البخاري].

إنَّ أكبر فاجعةٍ مُنِيَ بها العالم الإسلامي هي خُفُوت جذوة الحبِّ في قلوب المسلمين، إنَّه الحبُّ الذي يجعل البعيد قريباً والغريب أخاً وحبيباً، والمُرَّ حلواً والصَّعب سهلاً والعسير يسيراً والتراب تِبْرَاً، وذَكَرْتُ كلام جلال الدِّين الرُّومي: (إنَّ جميع المرضى يتمنَّون البُرْء من سَقَمِه، إلَّا أنَّ مرضى الحبُّ يستزيدون المرض، ويحبُّون أنْ يضاعف في ألمهم وحنينهم، لم أر شراباً أحلى من هذا السُّم، ولم أَرَ صحةً أفضل من هذه العلَّة، إنَّها علَّة ولكنَّها علَّة تخلص من كلِّ علَّة، فإذ ا أُصيب بها إنسانٌ لم يصب بمرضٍ قط، إنَّها صحةُ الرُّوح بل روح الصّحة، يتمنى أصحاب النَّعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم).

إنَّ ممَّا يزكي الحبَّ في القلوب: الإكثار من ذِكْرِ الله، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وصحبة المحبين والعلماء والرَّبانيين.

إنَّ قُسَنْطِينة مدينة الهوى والهواء، وهذا حَالُهَا، وهي مدينة العلم والعلماء، فهي عامرةٌ بالمدارس الدِّينية والمساجد والكتاتيب والزَّوايا، وتعتبر جامعة وجامع الأمير عبد القادر فيها أهمّ الصُّروح الثَّقافيَّة الإسلاميَّة، كما تعدُّ جامعة قُسَنْطِينة هي الأخرى إحدى القنوات الثَّقافيَّة والعلميَّة التي تفخر بها المدينة.

زرنا المسجد العامر جامع الأمير عبد القادر، وفيه أقمنا دورتنا العلميَّة على مدى الأيَّام العشرة، والمسجد تحفة معماريةٌ فنيَّةٌ، ترتفع مئذنتاه في السَّماء تعلنان أنَّ الدِّين والعِلْم والأخلاق أسمى وأعلى وأغلى ما تفاخر به البلاد.

تحيط بالمسجد الساحات الواسعة والحدائق الغنَّاء، وفي كلِّ زاويةٍ من زوايا المسجد قصَّة:

فهَاهُنا حلقات العناية بأطفال الرَّوضة ما قبل سِنِّ الدِّراسة، وهاهنا حلقات القرآن لأطفال المرحلة الابتدائية، وهاهنا يدرس الكبار الشَّاطبيَّة وأحكام التَّجويد، وهاهنا جموع النَّاس من عائلاتٍ متصاهرةٍ جاؤوا لإبرام عقود زواج أبنائهم في المسجد، يرجون بَرَكَة حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: **«أَعْلِنُوا هَذَا النِّكَاحَ، وَاجْعَلُوهُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بِالدُّفُوفِ»** [رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد].

وهاهنا قاعةٌ لاستقبال الضُّيوف، وفي الطَّابق الآخر قاعةٌ كتبوا على بابها: (مجلس الصِّلح) للإصلاح بين النَّاس، وفي الشّق الثَّاني من الجامع الجامعة، ذات المدرَّجات الفخمة، والقاعات الرَّحبة، وفيها كلياتٌ شرعيَّةٌ وكونيَّةٌ، دخلنا الجامعة ورأينا المرأة حاضِرةً فيها بقوةٍ، دارسةً ومدرِّسةً، يحدوها العِلْم، ويجلِّلها الأدب والحياء، والتقينا عميد الجامعة بأدبه الجمّ وابتسامته العريضة.

إنَّ جامع الأمير وقفٌ من أوقاف المسلمين، وهكذا كان المسلمون يوقفون أموالهم لمصالح البلاد والعباد تقرُّباً إلى الله تعالى وفهماً لحقيقة المال والحياة.

وينتمي لقُسَنْطِينة علماء كبار، منهم المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي، المولود فيها سنة 1905م، والمتوفي فيها سنة 1973م، دَرَسَ القضاء وتخرَّج مهندساً ميكانيكيَّاً، وهو أحد أعضاء مجمع البحوث الإسلاميَّة في القاهرة، وتولَّى إدارة التَّعليم العالي بالجزائر.

وقد زار دمشق في السِّتينيَّات وحاضر في جامعتها وجوامعها، وطبعت دار الفكر عدداً من كتبه، التي قاربت الثَّلاثين، وهو صاحب نظرية القابليَّة للاستعمار.

ومنهم رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر عبد الحميد بن باديس، وُلِد فيها سنة 1887م، والمتوفى فيها سنة 1940م، كان شديد الحملات على الاستعمار الفرنسي، مشغوفاً بتعليم النَّاس أمور دينهم، اشتغل بتدريس تفسير القرآن الكريم زهاء 14 عاماً.

ومنهم الشُّعراء والأدباء والرَّحالة.

وقد تمَّ اختيار قُسَنْطِينة عاصمة الثَّقافة العربية لعام 2015م، فهي تستعدُّ لذلك.

ذات مساءٍ وبعد انتهاء درس المغرب في أحد المساجد، قاد السَّائق المركبة ينقلني إلى سكن الطُّلاب الجامعيين ما يسمُّونه: (الإقامة الجامعية)، ونسمِّيه: (المدينة الجامعية) لأحاضر فيهم، اليوم في الإقامة الجامعيَّة للذُّكور، وغداً في الإقامة الجامعيَّة للإناث.

دخلت السَّكن الجامعي الَّذي يتسع لأكثر من ألفي طالبٍ، وهو بناءٌ جديدٌ مرتَّبٌ، يقيم فيه الطَّلبة من العلوم الكونيَّة والشرعية ، النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة ، ويقدِّم لهم الإقامة والطَّعام والشَّراب، وشيئاً من التَّرفيه والرِّياضة.

عنونت كلمتي في إقامة الذُّكور: (**قال: أحبُّها وبكى**)، أخبرتهم قصَّة شابٍ جامعيٍّ أحبَّ فتاةً وأراد الزَّواج بها، ولَمَّا أَبَى والده الأمر لعدم التَّناسب العلمي والدِّيني والمعاشي والعمري بينهما، جاءني باكياً مترامياً يطلب إليَّ أن أُقْنِع والده بالأمر، وعانقني وسقط بين يدي.

أخبرتهم أنَّ الدِّين والبلاد يريدون الشَّباب ويحبُّونهم، ويريدونهم أقوياء لبناء الدِّين والأوطان، ولا يريدونهم ضِعافاً يتساقطون وينهارون أمام عواطفهم.

وبالعِلْم والخُلق والدِّين يقوى الشَّباب، ومن دونه يضعفون، ثمَّ رحت أحدثهم عن هذه الثَّلاثة.

أمَّا كلمتي في إقامة الإناث فعنونتها: (**يا أختي**)، ذَكَرْت لهم حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون**» [أحمد].

ثمَّ ذهبت لأبحث في السَّيِّدة فاطمة التي توفاها الله تعالى، ولها من العمر تسع وعشرون سنةً، كيف صارت سيِّدة نساء العالمين، وهي شابةٌ فتيةٌ، فوجدتها متصفةً بأربع صفاتٍ: (بارةً بأبيها- ومربِّيةً لبنيها- وصابرةً مع زوجها- وطائِعةً لرَبِّها).

ثمَّ حدثتهم عن هذه الأربعة.

طيلة إقامتنا في قُسَنْطِينة مع إخواني الشُّيوخ: (الشَّيخ الدُّكتور محمَّد شريف الصَّواف، والشَّيخ الفاضل محمَّد عدنان أفيوني، والشَّيخ الدُّكتور علاء الدِّين الحموي)، كان رجلٌ أديبٌ نشيطٌ فاضلٌ يبذل ما استطاع لاغتنام وجودنا عنده، إنَّه مدير الشُّؤون الدِّينية والأوقاف في قُسَنْطِينة، آتاه الله خُلُقاً حسناً، وفهما عالياً، ونشاطاً ملحوظاً، لو استطاع أن يعصر أوقاتنا عصراً لفعل، دعانا للذَّهاب إلى المساجد للتَّدريس، وللمراكز الثَّقافية للنَّدوات، وللإذاعة والتِّلفاز للِّقاءات، وللإقامة الجامعيَّة للمحاضرات، فضلاً عن دوراتنا الأساسيَّة التي خرجنا لأجلها.

مضت الأيَّام العشرة في هذه الرِّحلة العلميَّة الإيمانيَّة، ذَكَرتُ فيها رحلات أسلافنا في طلب العلم والتَّعليم والدَّعوة إلى الله، وذَكَرت أنَّ الخطيب البغدادي (ت463هـ) ألَّف كتاباً سمَّاه: (الرِّحلة في طلب الحديث)، أصَّل فيه لهذه الرِّحلات وذَكَرَ من أمثلتها الكثير.

في يوم العودة لقينا في مطار الجزائر إخوةً سوريِّين ألجأتهم الأزمة إلى السَّفر، تنفَّسوا فينا ريح البلد، ورأوا فينا الأهل والولد، فضمُّونا وشمُّونا وحمَّلونا للشَّام السَّلام.

قلت لهم: أينما حلَّ المسلم فهويَّته دينه، وجوازه خُلُقه، وإقامته نفع البلاد والعباد.

وذكرت نشيد إقبال:

الصِّين لنا والعُرب لنا ... والهند لنا والكُّل لنا

أضحى الإسلام لنا دِيناً ... وجميع الكون لنا وطنا

توحيد الله لنا نورٌ ... أَعْدَدْنَا الرُّوح له سكنا

وعُدْنا إلى الشَّام التي ما فارقتنا، وكيف تفارق الرُّوح الجسد إلَّا إذا كان الموت.

اللَّهم احْمِ الشَّام وأهلها، وتولَّى الجزائر وشعبها، واحفظ بلاد المسلمين، وأفض الخير والبركة على أمَّة سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين